ربي اشرح لي صدري ويسر لي امري واحلل العقدة من لساني يفقه قولي

بين احضان البحر

محمود عيسى

الليل

الوحدة

الالم

ادخل غرفتي التي لا افارقها ألا قليلاً وأطفئ النور؛ لا اعلم هل هو هروب من الواقع الي ظلمة القبر ام انني اصبحت كالأنعام التي تساق ليلا الي جحورها حتى تشرق الشمس وتخرج كي تأكل من حشاش الأرض

نعم يا نفسي أصبحت كالأنعام هي تأكل من حشاش الأرض وانا اكل من حشاش الدنيا

حتى قلبي الذي بين ضلوعي أصبح شوكة صارخه تؤلمني كل مساء

اعتدت الالم ولكن ما لم أعتاد عليه بعد هو سبب الألم الذي يتغير في كل لحظة؛ أشعر بروحي تتسرب مني ببطء كحبات رمل تفر من الأنبوب الضيق في ساعة رملية وانتظر أن تسقط آخر حبة من روحي حتي تفارق جسدي؛ لعلي ارتاح في قبري الأبدي؛ ربما تكون جدران القبر اكبر من جدران الدنيا؛ لعلي لن أتألم مرة أخري

لست متشائم ولكن روحي مستنزفة حتى أخر قطرة فيها؛ لا أقوى على التحمل

اشعر بقطرات المطر تداعب قلبي الصغير؛ احلم بالغد الذي لن يأتي وأهرب من الأمس وأتمني أن يمر اليوم؛ ابحث عن ذاتي ولكن البحث عنها يستأصل مني كل يوم حتي أوشكت على التلاشي ربما تكون الليلة هي الأخيرة لي أمام شاطئ البحر ومخاض الحياة سنوات مرت قبل أن اقرر الهروب من ظلمة الغرفة وظلمة الحياة الان اجلس هنا كي أفرغ ما بداخلي بين احضان البحر قبل أن ارقد فيه الي الابد ولكن يبدو انه يريد أن يفرغ بي ما به وانا لا استطيع ان اتحمل ما بي من الآلام كيف لي ان اتحمل الآلام البحر.

تنهدت مايا قبل ان تغمض عينيها وتنصت لصوت الموج وتشعر به وهو يسرق حبات الرمل الي رحمه؛ تنتظر أن يسرق روحها.

يد خشنة ثقيلة باردة وضعت فوق كتفها العاري في هذا الطقس البارد ولكنها لم تحرك ساكنا وكأنها كانت تنتظرها.

بصوت خشن وانفاس متقطعة قال

_ لديك قلب قوي

_ بل ليس لي قلب كي اشعر به

_ لو كان أحد غيرك ولو رجل في هذا الطقس البارد المظلم ووضعت يد علي كتفه في غفلة لأفرغ ما في جسده من ماء في بنطاله من الخوف

_ الخوف غريزة تصاحب الاحياء

_ وأنت لست من الأحياء؟

_ يبدو انك نسيت اني اقف علي حافة الموت وانتظرك كي تدفعني

_ انت محقة ول*****

قاطعته قائلة

_ لا طاقة لي للحديث؛ أنا جاهزة للموت؛ اين المركب

أشار بيده للمركب الخشبي الصغير وقال

_ أعددت كل شيء؛ المركب والحبل وحجر كبير كما أردت

ولكن مازال امامك فرصة للتراجع عن قراراك

أمسكت كيس صغير اسود وأعطته له قائلة

_ المال كما اتفقنا؛ لا أحد يستطيع أن يتراجع عن الموت

حدق إليها متعجبا من هذا القلب الذي لا يعرف الخوف له طريقا أتي إليه عشرات الأشخاص من قبل كي يقتلهم بين أحضان البحر ولم ير واحدا منهم مقدما على الموت بقلب قوي مثلها؛ كانوا خائفون ويرتعشون بداخلهم ومنهم من ابتلت ثيابه قبل أن يقفز في الماء؛ بعضهم كان يتظاهر بالقوة ولكن صوته كان يفضحه؛ نعم كانوا يكملون حتي النهاية ولكن احساس قربهم من الموت كان يجعل الدم يتجمد في عروقهم؛ أما هي فصوتها قوي؛ ثابت.

بفستان اسود طويل يصل حتى قدميها وشعر اسود من ظلمة الليل ينسدل على كتفيها وقدم حافية سارت مايا نحو المركب تغرس قدميها في الرمال حتى لمست قدمها الماء؛ حنت جسدها الطويل وبللت يديها من الماء ومسحت على وجهها؛ نظرت خلفها فوجدته واقفا بعينيه اللامعتين في ظلمة الليل يحدق إليها؛ تعلم أن عيون الرجل لا تلمع ألا عندما تفتنه انثي.

مركب صغير قديم؛ طليت جوانبه بلون البحر الأزرق؛ جلست في المركب قبل أن يأتي هو الآخر ويجلس أمامها ويسحب المرسى ويبدأ في التجديف؛ مركب صغير ضعيف ورياح شديدة وأمواج عالية لا تعرف كيف سيصمد هذا المركب أمام الأمواج.

بحثت بعينيها عن القمر الذي طالما أحبت النظر إليه ولكنها لم تجده وكأنه يأبى أن يودعها هو الآخر؛ لعله لا يريد أن يري صديقته وهي تغادر الحياة

سألها إن كانت تريد أن تقفز هنا ام تريده أن يدخل أكثر في عمق البحر

أشارت له أن يكمل

موجة تعلوها موجة ترتفع عن المركب وتبلل ثيابهم وهي مغمضة عينيها بعدما ابتلت ملابسها وشعرها وهو ينظر إليها يؤد لو أن يقول لها اقفزي هنا قبل أن يغضب البحر أكثر ونقفز نحن الاثنان ولكن جمالها في ظلمة الليل جعله يراها وكأنها حورية بحر تجلس علي مركبه القديم؛ ظل يتأملها؛ يود لو أن يتوقف الوقت وتظل معه.

بكلمات متقطعة وأسنان يضرب أسفلها أعلاها بعدما ابتلت ثيابه وتخللت البرودة جسده قال

_ مازال بإمكانك العودة إن أردت

أشارت له أن يتوقف

وطلبت منه أن يلف الحبل حول الحجر ويربطه جيدا

تنهدت قائلة

_ ربما تلك ستكون اخر كلماتي في الحياة ارجو منك الا تقاطعني

أومأ برأسه أن نعم

واكملت قائلة

_ الحياة ما هي إلا دار الأحبة؛ إن غادروا فلا قيمة للحياة ربما تظن بي الجنون وربما غيرك يظن بي الجنون وربما انا كذلك ولكن هل ولدت من رحم امي احمل الجنون بين طيات عقلي ! بالطبع لا

ولكن كل ما حولي كان يدفعني الي الجنون ؛ اب لم يكن يعرف إلا القسوة كان ينظر إلي وكأنني عورة خلقت من ظهره ؛ عار يسير علي الارض ؛ نسي أنه ولد من امرأة وكبر بين أحضانها ؛ وما زاد الطين بلة هو أنه تعرض لحادثه قضت علي رجولته ؛ كان ينظر إلي وكأنني من دبر له تلك الحادثة ؛ تقبلني رغما عنه ؛ لم يحاول أن يغمرني بحبه قط إلا بعدما أدركه المرض وأصبح طريح الفراش لم يهتم به أحد إلا انا لم يكن يستطع أن يتناول شربة ماء بدوني وكان رد الجميل أن يرهن حياته بزواجي من رجل لا اعرفه رجل يكبرني بعشرين عاما ومع ذلك وافقت لعلي زواجي منه يطيل في عمر ابي الذي لم يحبني بضعة أشهر ولكن يبدو أن زواجي كان باب قبر أبي الذي فتح فبعدما تزوجت منعني زوجي من زيارة ابي وامي كانت مريضة هي الأخرى تحتاج لمن يرعاها ؛ حيوان برأس انسان لم يكن يعرف عن معاملة الزوجة الا الضرب ؛ مات ابي وتحملت الإهانة والقسوة عندما علمت أن هناك طفل يلهو بين أحشائي ؛ ظننت حينها أن الله قد عوضني عن موت ابي وقلت لنفسي أنه كان سيموت علي كل حال لأن مرضه لم يكن له علاج حاولت تقبل الأمر ولكنه لم يتقبل فكرة اني احمل طفل في احشائي وحاول عدت مرات أن يقتل ما في بطني ولكن الله ارد غير ذلك

شهور الحمل لم تحمني من بطشه أو لسانه؛ كأني دمية يفعل بها ما يشاء؛ كانت أمي تهون على وتطلب مني أن اتحمل وان هذا طبع الرجال جميعا ولكن ما لم تكن تعلمه امي أن هذا طبع الكلاب وليس الرجال بل إن الكلاب أكثر رحمة ممن يفعل هذا بزوجته.

علي كل حال تحملت وصبرت حتى رزقني الله بطفلة

دمعة غالبتها واكملت وهي تبكي

كانت لي الحياة؛ منحني الله إياها وبعدها بأيام قليلة ماتت امي وحرمت من رؤيتها لآخر مرة في حياتي بسبب زوجي.

لم يكن لي مفر إلا أن أطلب الطلاق؛ بعد محاولات كثيرة وبعدما سلبني كل حقوقي وجعلني اتنازل عن كل شيء منحني الطلاق ليس حبا في ولكن حبا في أن تخلو له الشقة كي يلهو مع عاهرته التي كان يصحبها الي المنزل بعدما يضع لي حبوب النوم في العصير.

عدت الي منزل ابي ومرت ثلاث سنوات وانا أشعر أن الله عوضني بأبنتي التي كانت لي الحياة.

حتي اتي ذلك اليوم واراد الله أن يمنحني المزيد من السعادة؛ تعرفت علي رجل أصبح بمثابة الأب والحبيب؛ أخبرته بكل شيء وقرر أن يصبح أب لأبنتي؛ اتفقنا علي كل شيء حتي أتي يوم

الزفاف؛ شعرت لأول مره بالفستان الابيض الذي ارتديته من قبل وكان سوار من نار اما الان فهو حرير من الجنة .

تزوجنا؛ تحولت حياتي من قبر مظلم الي جنة؛ ستة أشهر كانت كافية أن تعود حياتي الي قبر مرة أخري.

اتينا الي الإسكندرية وكنا في مركب كهذه؛ يحمل ابنتي على كتفه ويده حولي تحتضن رأسي الموضوعة فوق كتفه وشفاهه تطبع قبلة حارة فوق رأسي؛ نضحك

السعادة كما لو أنها رسمت بخيوط من الجنة؛ سماء صافية تحولت إلي الأسود؛ البحر الهادئ أصبح هائجا؛ موجاته تتصارع؛ المياه تغمر المركب؛ الموج يضرب جوانب المركب ويتلاعب بها

ابنتي سقطت في المياه ؛ قفز خلفها ؛ انا اصرخ ؛ صوتي كان اعلي من أصوات الموج ؛ صاحب المركب يمسك بي خوفا من أن اقفز انا الأخرى ؛ الموج يتلاعب به وهو يغطس كي يبحث عن ابنتي ؛ يغطس ويظهر عدة مرات ؛ لم استطع ان اتحمل أن أراه يصارع الموت وابنتي غمرتها مياه البحر ؛ صرخة خرجت من صدري شقت امواج البحر ؛ قفزت انا الأخرى ؛ اصارع الموج ؛ ابحث عن ابنتي ؛ أصبحت كمن يبحث عن إبرة في قاع المحيط ؛ سبح نحوي

؛ اقترب مني ؛ مددت يدي وانا ابكي نحو يده الممدودة حتي أتت موجة عاهرة أبت أن تتلامس أيدينا للمرة الأخيرة وسحبته بعيدا ؛ وموجة أخري دفعتني

اختفت ابنتي واختفي زوجي؛ تركت نفسي للبحر يفعل بي ما يشاء ولكنه أبي أن يسحب جسدي.

فتحت عيني لأجد نفسي في المشفى سألت عن ابنتي وزوجي ولكن كالعادة الجميع يهز رأسه ويربت على كتفي.

البشر يجيدون تمثيل دور الحزن ولكنهم لا يجيدون منح أحد السعادة.

شهور انتظر أن يخرج جثمان ابنتي وزوجي ولكن دون جدوى.

اتعلم

الجلوس في الجحيم ليس مؤلم ولكن المؤلم حقا هو نتذوق الجنة ثم نعود للجحيم مرة أخري

مرت سنوات لم أشعر بها وانا بين جدران الغرفة؛ الوقت يتوقف خلف الجدران؛ انتظرت أن يأتي الموت ولكنه يأبى زيارتي لذا قررت أن أذهب إليه.

وقفت ولفت الحبل حول وسطها ونظرت إلى السماء وابتسامة تعلو شفتيها وطلبت منه أن يلقي بالحجر في الماء بعدما وقفت على حافة المركب.

سقط الحجر في الماء والحبل يفرط من خلفه وهي تنظر إليه وهو يفرط ببطء حتي وصل إلي نهايته وسحبها وهي تبتسم وشعرها يتطاير مع الرياح؛ سقطت في المياه ومدت يديها لتشعر بلمسة يد زوجها تحتضنها ويد ابنتها تحتضن يدها الأخرى؛ نظرت إليهم وابتسمت حتي أغلقت عينيها